ثورة ٣٦ ــ ١٩٣٩ في فلسطين : خلفيات وتفاصيل وتحليل

غسان كنفاني

بين ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ تلقت الحركة الثورية الفلسطينية ضربة ساحقة في النقاط الثلاث التي تبلورت منذ ذاك بصفتها المعضلة الاساسية التي يواجهها شعب فلسطين: القيادات الرجعية المحلية، والانظمة العربية المحيطة بفلسطين ، والحلف الامبريالي ــ الصهيوني ، وسوف يترك هذا « العدو » المثلث بصماته على تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية منذ ١٩٣٦ بصورة اوضح مما كانت في اي وقت مضى ، وحتى الهزيمة الثالثة التي تلحق الجماهير الفلسطينية والعربية في ١٩٦٧ . وستحاول هذه الدراسة ان تركز بصورة خاصة على هذه النقاط الثلاث وعلى الجدلية المتضمنة في كل منها على حدة والقائمة فيما بينها جميعا .

ان عنف التجربة الوطنية الفلسطينية التي تفجرت منذ ١٩١٨ وكانت تترافق بصورة او باخرى مع الكفاح المسلح ، لم تستطع ان تعكس نفسها على البنية الفوقية للحركة الوطنية ، التي ظلت تحت هيمنة القيادات شبه الاقطاعية ــ شبه الدينية ، ويعود ذلك بالدرجة الاولى الى سببين متداخلين : ا ــ وجود وفاعلية الحركة الصهيونية التي ضاعفت من ثقل وهيمنة التحدي القومي على جميع اشكال التحديات الاخرى ، وعكس هذا التحدي نفسه على الطبقات الكادحة العربية التي كانت تعاني من الغزو الصهيوني المدعوم من الامبريالية البريطانية معاناة يومية مباشرة . ب ــ وجود حد من التناقض بين القيادات العائلية الاقطاعية الدينية العربية وبين الامبريالية البريطانية ، يجعل دفع الثورة الى مدى معين من مصلحة هذه الطبقات التي تجد عادة مصلحتها في ظروف مغايرة مختلفة عن الاستثناء الفلسطيني الخاص بالتحالف شبه الكامل مع الامبريالية . وقد نشأ ذلك الحد غير العادي من التناقض عن وجود « عميل ملائم أكثر » للامبريالية البريطانية هو الحركة الصهيونية ، جرى توظيفه بدل تلك الطبقات .

ان هاتين المسألتين المتشابكتين قد جعلتا لنضال شعب فلسطين خصوصية لم تكن في ذلك الحين تشبه تلك الخصائص التي كانت لنضالات الشعوب العربية المحيطة بفلسطين ، وقد ادت هذه الخصوصية الى نتائج خطيرة ، منها مثلا اندفاع هذا النوع من القيادات الاقطاعية الى ممارسة او قبول ممارسة ارقى اشكال النضال السياسي (الكفاح المسلح) ، ومنها اصرار هذه القيادات ــ من حيث الشكل على الاقل ــ على رفع الشعارات التقدمية ، وكونها ــ رغم كل ما فعلت ــ مثلت مرحلة مهمة من النضال الوطني الفلسطيني . على أن ما هو أكثر اهمية هو تفسير تلك الاستطالة غير العادية التي عاشتها القيادات الاقطاعية الدينية على رأس حركة الجماهير (من ١٩١٨ ــ ١٩٤٨) ، ذلك ان التحول في الهيكل الاقتصادي والاجتماعي في فلسطين ، والذي كان يحدث بسرعة مذهلة ، كان يصيب بالدرجة الاولى القطاع اليهودي على حساب البورجوازية الفلسطينية المتوسطة والصغيرة وخصوصا على حساب الطبقة العاملة العربية ، ان تحول الاقتصاد من اقطاعي الى رأسمالي كان يجري بتمركز متزايد في يد الحركة الصهيونية وبالتالي في يد المجتمع اليهودي في فلسطين .